علي حيدر (*)

إفريقيا هنا...

[قراءة في كتاب «فيللا في الغابة- إفريقيا في الثقافة الإسرائيلية»، تأليف إيتان بار يوسف، ٢٠١٣]

يكاد لا يمضي يوم دون أن تتطرق وسائل الإعلام الإسرائيلية والحياة السياسية، وممثلو مؤسسات المجتمع المدني والرأي العام الإسرائيلي إلى موضوع المهاجرين من الدول الإفريقية الهاربين عبر الصحراء والذين نجحوا في الدخول إلى إسرائيل باحثين عن مكان للجوء أو للعمل.

وقد وصل الأمر مؤخرا برئيس الحكومة إلى طلب منع نشر تقرير مراقب الدولة الذي أجرى بدوره فحصا حول موضوع تعاطي الحكومة الإسرائيلية مع طلبات اللجوء من قبل الإريتريين والسودانيين بدعوى «ان التقرير من الممكن أن يسبب الضرر للعلاقات الخارجية للدولة» نتيجة للممارسات والتسميات (يسمون متسللين) وخرق المعاهدات الدولية التي تنظم هذا الموضوع. ففي الشهور الأخيرة توفر الحكومة الموارد الكبيرة من أجل مطاردة طالبي حق اللجوء وتقيم المعتقلات وتسن القاونين التي تلتف حتى على قرارات المحكمة العليا وتتناقض والمعاهدات الدولية وتعتقل الحكومة أشخاصا دون محاكمة، «وتصطادهم» في الشوارع وتماطل في معالجة طلبات الحصول على بطاقة لاجئ وكل ذلك من أجل إرغامهم على «المغادرة الإرادية». وفي المقابل تعمل الحكومة على طردهم لدول غير معلومة بحسب اعتراف وزير الداخلية.[١]

أما على مستوى الرأي العام الإسرائيلي فإن المشهد المسيطر هو احتقار فظ وشيطنة وعنصرية وتحريض مستمر ضد اللاجئين الأفارقة وحتى التنكيل بهم وبأولادهم.

صدر مؤخرا في ظل المشهد الراهن الذي وصفناه كتاب للدكتور

(*) محام حاصل على اللقب الثاني في الحقوق من جامعة بار ايلان واللقب الثاني في العلوم السياسية من جامعة حيفا.

إيتان بار يوسف تحت عنوان رئيس « فيللا في الغابة» وعنوان فرعي «إفريقيا في الثقافة الإسرائيلية» وذلك ضمن سلسلة كتب مشتركة لمعهد فان لير في القدس ودار هكيبوتس همئوحاد سميت سلسلة سياقات تأمل ونقد، من تحرير البروفسور يهودا شنهاف.

ويسلط الكتاب الضوء على السنوات المؤسسة أو ما يسمى «بالعصر الذهبي» للعلاقات الإسرائيلية- الإفريقية (١٩٥٧-١٩٧٣) وكيف انعكست هذه العلاقات في المسرح، في الأدب،[٢] في الثقافة الشعبية. ولذلك فالكتاب يجري عملية حفر وتحليل للرصيد الثقافي المؤسس حول العلاقة الإسرائيلية -الإفريقية وتشكلاتها وتجلياتها الثقافية.

يفحص الكتاب أيضا تأسيس «القارة السوداء» كحيز وعي وجغرافيا من الممكن الالتقاء عليها، أو تنفيذ تخيلات صهيونية من خلالها، سواء أكانت متعلقة بالأرض أم بالعرق. الكتاب يقترح من خلال النظر إلى إفريقيا، وجهة نظر جديدة لفحص التطلعات والمخاوف التي تبلور وتشكل المجتمع في إسرائيل منذ ذلك الحين وحتى الوقت الراهن.

قبل أن نستعرض مبنى الكتاب، فصوله والأفكار المركزية التي يطرحها، من الضروري التعريف بالكاتب وخصوصا أنه غير معروف للقارئ العربي بشكل جيد. إيتان بار يوسف هو باحث في الآداب ويعلم الأدب الإنكليزي في قسم الآداب العالمية واللسانيات في جامعة بن غوريون في النقب. صدرت للكاتب عدة كتب ومقالات علمية من بينها: The Holy Land in English Culture, 1799-1917: Palestine and the Question of Orientalism صدر عن دار النشر التابعة لجامعة أكسفورد العام ٢٠٠٥ . كما حرر بالمشاركة مع نادية فالمان كتاب The Jew› in Late-Victorian and Edwardian Culture: Between the East End and East Africa والذي صدر عن دار فلجرايب في ٢٠٠٩. منذ العام ٢٠١٣ يحرر المؤلف الدورية العلمية المحكمة والصادرة عن معهد فان لير «نظرية ونقد» والتي تعتبر ذات توجهات نقدية وراديكالية.

يشتمل الكتاب على مدخل، أربعة فصول وخاتمة كما يشمل قائمتين واحدة للمصادر والأخرى للصور، ويشمل الكتاب أيضا فهرست للأسماء والمواضيع.

من الجدير التنويه أنه صدرت في السنوات الأخيرة عدة كتب وأبحاث نقدية في إسرائيل، تستخدم الفكر الما بعد- كولونيالي، وتستخدم أدوات نظرية تعالج صورة «إفريقيا» في الغرب، ونقد تأسيس الهيمنة الصهيونية من أجل تحري وتعقب آثار التدخل الإسرائيلي في القارة الإفريقية بمجالات مختلفة، مثل فن العمارة وإكساب المعرفة التقنية والمعرفة القانونية. ولكن كتاب بار يوسف يتركز في الجوانب الثقافية للظاهرة كما تتشكل من خلال مجموعة غنية من التمثيلات، النصوص الأدبية، المسرحيات وحتى المشاريع العسكرية والدبلوماسية، فهو يدعي أن «إفريقيا مثلت في الماضي، وما زالت تمثل، دورا مركزيا في الثقافة الإسرائيلية، وقد تجلى ذلك من خلال تمثيلات وشخصيات وأشكال لا حصر لها».

يتركز معظم الكتاب كما ذكرنا سالفا في سنوات «المغامرة الإفريقية» لإسرائيل، منذ سنوات الخمسينيات للقرن العشرين (بداية فترة التحرر وما بعد الكولونيالية) وحتى منتصف سنوات السبعينيات (الفترة التي انقطعت بها العلاقات الدبلوماسية بين إسرائيل وغالبية الدول الإفريقية). ولكن قبل أن يخوض الكاتب في طيات وتفاصيل هذة المرحلة، يبحث ويفصل المغامرات الإفريقية التي سبقتها والتي من دون التطرق لها لا يمكن فهم، وبشكل سليم، مركزية «إفريقيا» في الثقافة العبرية. ففي **الفصل الأول** يتطرق الباحث وبعمق إلى ثلاثة أحداث عرضية:

١. مكانة إفريقيا في كتابات ثيودور هرتسل.
٢. قصة الوفد الصهيوني الذي أرسل إلى شرق إفريقيا العام ١٩٠٤ لتفحص الأرض التي اقترحت وعرضت على الكونغرس الصهيوني (الكاتب يسلط الضوء في الأساس على رواية مناحيم فيلبوش عضو الوفد اليهودي الوحيد).[٣]
٣. رحلة ناحوم جوتمان إلى إفريقيا العام ١٩٣٤ كما وثقت في كتابه في **أرض لوبنجولوا ملك زولو**(١٩٣٩).[٤]

في كل واحد من هذه الأحداث حاول الكاتب بحث ودراسة ثلاثة مواضيع مركزية:

أ. قضية لون الجسد اليهودي والشكل الذي من خلاله شكل اللقاء مع «القارة السوداء» فرصة لتثبيت اللون الابيض لليهود وتبعات ذلك.
ب. مسألة العلاقة بين ما يسمى «أرض إسرائيل» وبين الحيز الإفريقي كما تجلى ذلك في الخصائص المميزة للشعب (الإثنوس) اليهودي كالطلائعية والعمل باليد والشكل الذي به توضح هذه العلاقة الجوانب الكولونيالية في الفكر الصهيوني.
ت. المسألة الثالثة هي الدمج بين المسألتين السابقتين- طبيعة

المغامرة الإفريقية وقدرة المسافر الصهيوني على تذويت هذه المغامرة والتمتع بها مما يعني محاكاة الكولونيالي بشكل متقن.

يستنتج الكاتب من خلال هذا الفصل أن هناك وجوه شبه ممكنة بين الأيديولوجية والممارسة الصهيونية من جهة وبين الأنظمة البيضاء التي حكمت وسيطرت على جنوب القارة الإفريقية من جهة اخرى. يتضح هذا التشابه من خلال كتب هرتسل ومن خلال النصوص الأخرى التي تعاطت مع قصة الوفد لأوغندا ومن ثم التجلي العملي الذي قاد في تلك الظروف إلى كتاب جوتمان. وكتاب جوتمان للأطفال يشير إلى القرابة الثقافية والنفسية التي وصلت بين الإسرائيليين والجنوب إفريقيين وإلى مدى قدم هذه العلاقة.

ويتابع الكاتب بقوله إن «الصهيونية أسقطت هذه العلاقة مع جنوب الإفريقيين على الآخرين وهم الفلسطينيون «السود» الذين يعيشون معهم في الحيز نفسه. وبعد ذلك أسقطتها على اليهود الشرقيين المهاجرين من شمال إفريقيا من خلال التعامل معهم «كممثلي إفريقيا السوداء والبربرية» وبذلك تم استخدام اليهود الشرقيين من أجل إتمام مشروع (تبييض اليهود المهاجرين من شرق أوروبا) وغربنتهم، ومن أجل تأسيس مبنى قوى كولونيالي- وشبه كولونيالي يمنح اليهود الاشكناز امتيازات ووسائل هيمنة ومواقع اتخاذ قرار مهمة ويقصي الشرقيين السود».[٥]

يبحث **الفصل الثاني** من الكتاب تمثيل إفريقيا والإفريقيين في المسرح الإسرائيلي، فالمسرح كما يبدو مكان مثالي لفحص تبييض الجسم اليهودي. لقد اختار المؤلف عرضا مسرحيا وحيدا وناجحا، عرض مئات المرات، كنقطة انطلاق للنقاش. مسرحية «ابكي يا بلدي الحبيب» التي عرضت العام ١٩٥٣ وهي عبارة عن إعداد وتوزيع موسيقي لكتاب الآن بيتون (١٩٤٨)، رمزت وكما يبدو إلى معارضة إسرائيل لنظام الفصل العنصري وتعاطفها مع السود المضطهدين في جنوب إفريقيا. إلا أنه ومن سخرية القدر فإن العمل المسرحي الذي هدف إلى تعزيز الواقعية المسرحية أبرز الفجوة العرقية الفاصلة بين اليهود والسود، كون هناك ضرورة إلى وضع قناع أسود (blackface)[٦] يؤكد بياض الجسم اليهودي أو كما يقول الرغبة في البياض.

لقد وجهت للمسرحية تأويلات ومعان سياسية متناقضة: التأويل الرائج نظر إلى المسرحية كشهادة على الحساسية الأخلاقية لإسرائيل، ولكن تأويلات أخرى نظرت إليها كتورية لما يحدث في المجتمع الإسرائيلي نفسه ولسيرورة اضطهاد «السود» (من الفلسطينيين واليهود الشرقيين) من قبل النخبة الاشكنازية البيضاء.

يواصل الكاتب من خلال هذا الفصل سبر غور عملية استغلال المسرح العبري وتقنية (الوجه الأسود) بشكل عام وتمثيلات إفريقيا بشكل خاص من أجل التعامل بصورة واضحة وواعية مع الصراعات بين المجموعات المختلفة داخل إسرائيل سواء الثقافية أو القومية.

أما **الفصل الثالث** فقد طور مسألة التشابه والاختلاف من خلال التمركز بأحد المشاريع المركبة التي أدارتها إسرائيل في القارة الإفريقية وهو التجربة لتصدير نموذج كتيبة ناحال[٧] إلى الدول الإفريقية من أجل إقامة المستعمرات التي تدمج الخدمة العسكرية، وشكل ذلك وسيلة لبناء الأمة. في هذه الحالة بدلا من أن يضع الممثل المسرحي اليهودي القناع الأسود على وجهه يطلب الشاب الإفريقي (أو يطلب منه) محاكاة الطلائعي (الحلوتسي) العبري. وقد سلط الكاتب الضوء في هذا الفصل على مكانة الجسم اليهودي في الحيز القومي وفي الخطاب الطلائعي وأفاض في عرض التحولات والتغييرات التي حلّت على كتيبة الناحال على مدار السنين والتي حولتها إلى رمز واضح للرغبات والتناقضات التي ميزت الهوية الإسرائيلية الآخذة في التشكل.

إن الناحال الإفريقي الذي أسس بناء على وتيمنا بالتجربة الطلائعية العبرية كشف وأكد التناقضات منها:

أولا: إبان تقييم إنجازات الناحال في إفريقيا رفض الإسرائيليون قبول الواقع الذي سلّموا به بشكل فعلي (على سبيل المثال أن خريجي الناحال قد تركوا المستعمرات التعاونية الزراعية...).

ثانيا: إن عمل الموفدين الإسرائيليين إلى إفريقيا والذي تم استيعابه في بداية الأمر على أنه استمرار طبيعي لنشاط الطلائعيين أصبح يفقد بشكل تدريجي الهالة المثالية التي الصقت له حين اتضح أنه مجرد استنساخ لأسس استعمارية معروفة ومألوفة من قبل من خلال نشاط أشخاص بيض آخرين في القارة.

في **الفصل الرابع** والأخير من فصول الكتاب تناول الكاتب اللقاء المكثف بين الإسرائيليين والأفارقة في سنوات البحث كما عرضوا في الثقافة الإسرائيلية. يشير المؤلف إلى أن الصحافيين والأدباء والمبدعين وجدوا انفسهم معتمدين على حبكات ونماذج أولية مألوفة من خلال الخطاب الكولونيالي ليتمكنوا من وصف مجريات الأمور والأحداث.

وقد تركز هذا الفصل بأربعة تمثيلات. تناول الكاتب كل واحدة

منها على حدة، ومن ثم تناول العلاقات المتبادلة بينها. وقد تطرق إلى العلاقات الخطابية والمحسوسة التي نسجت على مرّ السنين:

تمثيل وزيرة الخارجية غولدا مئير «كملكة كبيرة وبيضاء» يلحقها الأفارقة ويسيرون وراءها.

شخصية الإفريقي الفرد الأعزل والحساس القادم الى إسرائيل من أجل المشاركة في دورات الاستكمال واكتساب المهارات والذي يستصعب بدوره العيش في إسرائيل.

القائد الإفريقي الجديد والواعد والذي يمنح الأمل بمستقبل أفضل ولكنه ينحرف وبسرعة ويتحول لرمز للفساد والظلم والتلوث.[٨]

شخصية الإسرائيلي المغامر الذي تردى وانزلق إلى حالة اليأس فترك البلاد وعاش في قلب الظلام الإفريقي مثل شموئيل جوروديش.[٩]

تحليل هذه الميثولوجيات (عالم الأساطير)– مفهوم يدمج بين عمل رولان بارت النقدي وبين النظر الشعبوي لهذه الشخصيات واعتبارها شخصيات كبيرة جدا (مثل عيدي أمين، شموئيل جوروديش، وغولدا مئير)– سمح بحسب الكاتب بمتابعة انتقال الروايات الكولونيالية إلى الثقافة الإسرائيلية وساعد في فهم لماذا اختار الإسرائيليون أن يرووا لأنفسهم هذه الروايات بالذات. من الجدير بالذكر أنه في هذه المرحلة كان لإسرائيل باع طويل في عملية بيع الأسلحة والاتجار بها وربط علاقات مع قادة طغاة.

يختتم الباحث الكتاب ناظرا إلى الأمام من الفترة التي بحثها ومتأملا في سنوات الثمانينيات وما بعدها مقارنا إياها بالسنوات التي فحصها البحث. في المرحلة الجديدة اكتسب الحضور الإفريقي المحسوس والملموس مكانا كبيرا جدا وآخذا في الاتساع في الحيز الإسرائيلي، وذلك من خلال هجرة يهود أثيوبيا[١٠] ووجود ومشاهدة مهاجري العمل واللاجئين الأفارقة، نظام الأبرتهايد (الفصل العنصري) الآخذ في الازدياد في الأراضي المحتلة وداخل الخط الأخضر. يشير مجموع هذه التطورات الاجتماعية والسياسية إلى أن الأوهام والتخيلات العرقية والمتعلقة بالأرض والتي اتضحت خلال اللقاء الإسرائيلي مع إفريقيا نسخت إلى داخل إسرائيل وبحسب الكاتب أصبحت إفريقيا هنا. وبذلك يستعمل الكاتب المقولة الشهيرة لرئيس الحكومة السابق ايهود باراك بأن إسرائيل هي «فيللا في الغابة» (بمعنى دولة ذات رفاهية واستقرار ودولة متنورة تعيش في قلب شرق أوسط متوحش ومتقلب) ليتساءل الكاتب ويثير الشك فيما إذا كانت إسرائيل هي الغابة بنفسها.

الكتاب مهم جدا لفهم العلاقة الإسرائيلية الإفريقية وكيفية انعكاسها في السنوات التأسيسية على العمل الثقافي بأشكاله المتعددة بالرغم من أن الكاتب أقتصر تحليله على نماذج مختارة ومحدودة ولكنها ممثلة للخطاب والممارسة.

لم يقتصر الكتاب على التعمق بفترة البحث وموضوعه الثقافي إلا أنه ربط جوانب علمية متعددة اجتماعية، سياسية، اقتصادية، عسكرية وغيرها لتصبح نتائجه وتفسيراته أكثر تماسكا. الكتاب يطرح مقولات جديدة ويرسم نتيجة البعد الزمني والتراكم المعرفي صورة مركبة ومفصلة، كما إن الكاتب لا يكتفي بسرد السير والسرديات والأحداث في المحطات والمواقف والاختيارات بل يجري عملية تفكيك للمواقف والنظريات والأحداث والرؤى العامة والخاصة، مستندا إلى قاعدة معرفية ما بعد كولونيالية غنية بموضوعاتها ومنظريها (إدوارد سعيد، هومي بابا، جياتري سبيباك، فرانس فانون وآخرون) ومنهجيتها.

من الممكن توجيه النقد للكاتب بأنه اعتمد كثيرا على مصادر صحافية دون التمييز بين الصحافيين وكيفية وطبيعة وظروف حصولهم وعرضهم لهذه المعلومات وما هي منطلقاتهم. كما أن الكاتب ورغم وعيه لذلك نظر إلى إفريقيا الكبرى دون التمييز الكافي لخصوصية دول وثقافات ولغات مختلفة ومتعددة.

الهوامش

١ ماذا يخبئون؟، صحيفة هآرتس، ٢٠١٤/٣/١٨ ص ٢.

٢ لا يمكن الإحاطة من خلال هذه المراجعة بكل الأعمال الأدبية المذكورة سواء التي تدعم ادعاءات الكاتب مثل عاموس عوز وآخرين من جهة أو أعمال أكثر موضوعية ومتحررة من هذه الأنساق مثل الكاتبتين رونيت مطلون وميخال بيلغ.

٣ «خطة أوغندا» والتي شكلت أحد الإمكانيات لتوطين اليهود فيها.

٤ ناحوم جوتمان من مواليد روسيا عام ١٨٩٨ والمتوفي في إسرائيل عام ١٩٨٠ رسام، نحات، أديب وكاتب قصص أطفال وقد حاز على جائزة إسرائيل على أعماله في أدب الأطفال.

٥ المثير للسخرية والاستهجان بأن ايلي يشاي والذي قدم إلى جنوب تل أبيب كوزير للداخلية عام ٢٠١٢ قال مخاطبا اللاجئين ألأفارقة وقاصدا إسرائيل مدافعا عنها ومحرضا ضد اللاجئين «هم لا يفهمون بأن هذه أرض الإنسان الأبيض»، ويشاي نفسه ابن لعائلة شرقية هاجرت من شمال افريقيا وهو عضو في في حركة شاس الشرقية ومن خلال هذا التصريح يريد تبييض نفسه أو أنه قد نوت مشروع التبييض الموهوم.

٦ من الجدير بالذكر أنه في العام ٢٠٠٠ أعيد عرض المسرحية في مسرح هبيما، ولكن هذه المرة دون استخدام الوجه الأسود.

٧ الناحال هو مختصر كلمات شباب الطليعة المقاتلة وهو مشروع هدف إلى الخدمة العسكرية وإقامة المستعمرات الزراعية.

٨ عيدي أمين– حاكم عسكري ورئيس أوغندا الثالث (في الفترة بين الأعوام ١٩٧١ و ١٩٧٩).

٩ جوروديش (شموئيل غونين هو قائد عسكري إسرائيلي فصل من الجيش نتيجة لفشلة في حرب العام ١٩٧٣ وبعدها عمل كرجل أعمال في إفريقيا حتى توفي عام ١٩٩١ وعمل في استخراج الماس من المناجم الإفريقية).

١٠ «عملية موشيه» (عملية نقل اليهود الأثيوبيين عن طريق السودان الى أوروبا ومنها إلى إسرائيل أواخر العام ١٩٨٤ وبداية العام ١٩٨٥).